الثلاثـــــــاء 18-12-2007

109- عـــن الديـــــن العالمـــــى

مقدمة :

هذه تعتعات ثلاث، الأولى، والثانية نشرتا فى الدستور والثالثة على وشك النشر الأسبوع القادم، وحين راجعتهم معاً وجدت أن زوار الموقع أولى بهم وقد تواصلوا حول موضوع واحد هكذا:

الجزء الأول: وعىٌ وسلوكٌ ومعتقد

طلب منى صديقى عمر (حفيدى جداً، أعنى صديقى جدا) أن يتحاور معى حول موضوع يعده لتقديمه ضمن واجبات دراسته فى قسم ما فى الجامعة الأمريكية (يقول إنه قسم الاجتماع، لكنه يعد نفسه فى قسم الفلسفة!!) سألته: يحاًورنى بصفتى من؟ لم يُجبْ، فهو يحاورنى منذ ولد، بكلام وبغير كلام. وافقت طبعا، فنادرا ما لا أوافق، بالذات بالنسبة للشباب والشابات.

الموضوع حول "تدريس الدين فى المدارس المصرية"، لماذا يا عمر اخترت هذا الموضوع بالذات؟ الله يسامحك!! قال: لست أنا الذى اخترته، أنا كُلِّفتُ به،

أنا أعلم أن موضوع "ربنا" و"الدين" يشغله من قديم، مثلنا كلنا ونحن فى سنه، قبل أن نُمْنَعُ فنكف عن التفكير نهائيا، وكان يكثر من فتحه معى، ويتعجب من تحملى له، وسماحى بأسئلته، وحيرتى .. مع حيرته، حتى وصل الأمر به أنه كان – حين يحتد به النقاش مع زملائه ، يدعوهم لمقابلتى، أو ربما يهددهم بمقابلتى، بدليل أنهم لم يحضروا إلىّ أبداً برغم تكرار الوعد وتكرار القبول من ناحيتى.

نرجع إلى حواره المكلف به من مدرسه أو أستاذه فى الجامعة، سألنى عن "تعريف الدين"!! يا خبر يا عمر !! هكذا خبط لزق، أجبته إنه **"وعى"**، و**"سلوك"**، و**"معتقد"**، معاً، بحيث لايمكن أن ينفصل أى من هذا الثالوث عن بعضه البعض، الوعى فقط قد يكون إيمانا وليس دينا، والسلوك فقط، ربما فى ذلك العبادات، قد يكون تقليدا أو عادة، والمعتقد فقط قد يكون أيديولوجيا، العجيب أنه فهم ما لم أكن أنا شخصيا واثق أننى فاهمه.

سألنى: ما رأيك فيما يدرس بمدارسنا فى حصص الدين، قلت له: إيش عرفنى ماذا يدرسون حتى أحكم؟ ثم من هو الذى يدرِّس حتى أبدى رأيي فيه، ولم أقل له ما وقعت فيه من خطأ ذات يوم منذ أكثر من ربع قرن:

كان ذلك حين استدرجنى قلمى لكتابة مقال صغير، أو ربما ردا على أحمد بهجت فى صندوق الدنيا اقترحت فيه التوصية بتدريس آيات التراحم والمودة والسماح للأطفال، بدلا من البدء بآيات الترهيب والترغيب والتعذيب، مقترحاً أن تؤجل إلى سن لاحقة، وأذكر أننى أشرت إلى أن للقرآن ظاهرا وباطنا ومنقلبا وحدًّا ...الخ، وعينك لا ترى إلا النور: فى زيارتى اللاحقة لأستاذى الأول المرحوم المحقق الجليل محمود محمد شاكر، صافحنى بيده القوية الواثقة، حتى كاد يخلع كتفى، كان مكفهرا، وما إن جلست حتى صاح بى، وكان صوته جهورياً يخرج واضحا جليا حتى وهو يهمس، فما بالك حين يصيح. كنت وحدى والحمد لله، حتى لايشهد تقريعى أىُّ من زواره الأفاضل، صاح بى: ما هذا الذى كتبته يا دكتور؟ (وكان نادرا ما يلقبنى) قلت لنفسى: ربنا يستر، ولم أجب، ولم أستوضح، مد أستاذى يده وتناول المصحف الشريف، ولوح به فى وجهى سائلا بوضوح: "أليس هذا هو كتابك؟" تلفت أبحث عن كتاب آخر غير كتاب الله فلم أجد، فعلمت أنه يعنى القرآن الكريم، قلت على الفور: بلى، وهل فى ذلك شك؟ قال: فكيف وهذا كتابك تكتب ما كتبت؟ ثم عادت أبوته الحانية تطل من عينيه فتحيط بى وتطمئننى، وتجعلنى أكتفى بالصمت، ولا أسأل عن خطأ ما كتبت أصلاً، كان يعلّمنا بالأسئلة والرفض المحب أكثر مما يعلمنا بالنصيحة المباشرة والتصحيح المُلاحِق.

حين رجعت إلى منزلى رحت أعيد قراءة ما كتبت، وأسأل نفسى: أى خطأ أثار أستاذى إلى هذه الدرجة؟ ولم أجد إجابة واضحة.

لم أعرف خطئى المبدئى بوضوح إلا بعد حوالى عشرين عاما، لأتأكد منه منذ أيام وأنا أحاور صديقى "عمر" وأجيبه عن تساؤلات "الإدارة الأمريكية" للأديان، أقصد "الجامعة الأمريكية" أقصد، مدّرسته فى الجامعة الأمريكية.

اضافة:

كان أستاذى المرحوم شاكر تقليديا ملتزما قويا وواضحا أبدا، كان شديد التحفظ ضد تفضيل أية عن آية: فكل كلام ربنا هو كلام ربنا، كما كان شديد الحذر من طرح فكرة مستويات التلقى (ظاهرا وباطنا..الخ) كما كان يعلمنا أن كل آية لا تؤخذ إلا فى سياقها، وكل سياق لايؤخذ إلا فى مجمل التنزيل، وحين شممت من عمر أنهم يريدون، تنقية الدين (وربما القرآن) إلا مما يريدون فهمت اعتراض أستاذى منذ ثلاثين سنة، مع أنه أصبح لى اعتراض على اعتراضه لا مجال لتفصيله هنا الآن.

الجزء الثانى: تمييع خبيث، أم احترام متبادل؟!

قال عمر (حفيدى/صديقى): لم تقل لى حتى الآن: ما رأى

حضرتك كيف يدرّس الدين فى المدارس؟. ووددت لو أنى قلت له: وماذا يفيد أن أبدى لك رأيى فى تدريس أى شئ: الدين أم الجغرافيا أم حساب المثلثات؟ لا أحد يأخذ برأى أحد، وهل هم أخذوا رأى أحد فى الابتدائى "أبو خمس سنوات" ثم "أبو ستة" وبالعكس، أو فى عك الثانوية العامة (رايح – جى)، ماذا يفيد رأى أى أحد فى تدريس أى حاجة، أو فى أى حاجة، نحن ننتظر رأى المشايخ فى الدين لا رأى ربنا، وتوجيهات الرئيس فى السياسة لا توجيهات الناس واحتياجاتهم، ولا حتى الوزراء، قال لى عمر ينبهنى، لم تجبنى يا جدّى، كيف يدرّس الدين؟ انتبهت أن أكثر من نصف الرد لا يخرج ألفاظاً. قلت: ماذا تعنى؟ قال: هل الأفضل أن يفصلوا المسلمين عن المسيحين فى حصص الدين؟ قلت له: لا طبعا، وإلا نحن لن ندرس الدين وإنما سنعلم الأولاد مزيدا من الكذب والنفاق؟ ماذا سيقول مدرس مسلم لتلاميذ مسيحيين عن دينهم؟ وماذا سيقول مدرس مسيحى لتلاميذ المسلمين، ماذا سيدرّسون؟ قال: يدرسون الأسس العامة للدين، المناطق المشتركة فى كل الأديان، قلت له من قال لك أن هذا هو الدين؟ هذه إما فلسفة الأديان، أو مبادئ الأخلاق التى يباركها ربنا أو لا يباركها، على كل فريق أن يعرف أفضل ما فى دينه، ثم يتعلم كيف يتحمل مسئولية اختلافه مع الآخر، وقواعد العيش معه باحترام، أما أن يختزل الدين إلى تلك الشائعات الدمثة الجوفاء مثل: "مادمت لا أضر الناس"، فأنا متدين، مادمت حلو وطيب، فأنا متدين"، إننا بهذا الهرب المستورد، نترك تدريس الدين لمن "لا نعرفه"، وربما لمن "لا يعرفه"، سواء فى البيوت أو دور العبادة، ثم سرحت: بعيدا عن عمر وأنا أتذكر موقفى مع إحدى بناتى – زميلاتى تلميذاتى – مسيحية هى، ونحن الاثنان مهتمان بمريض صعب جدا جدا، وكأننا بما نفعل نحيى ميتا، أسألها: أبعد كل هذا يا فلانة ترضين أن تدخلينى النار؟ فتقول بلا تردد: "مستحيل"، فأقول لها : لا يا شيخه؟. وماذا يقول لك أبونا فى الكنيسة، فتخجل أن ترد، وتبتسم وتفضل أن تعتبرنى أمزح، فأواصل: أليس من الصعب ونحن نعمل هذا العمل المشترك الذى لا يعلم حقيقته إلا الله، ونحن نحيى هذا الذى أضاع نفسه حتى مات أو كاد، هل من المعقول أن نجد أنفسنا أنت وأنا، -هناك- كل واحد فى ناحية ؟ ألن أصعب عليك؟ فتقول: "أنا متأكدة أن حضرتك .."، وتتوقف، يخيل إلّى أنها منعت نفسها عن الكذب أو الفتوى أو الشفاعة وأظن أنها خجلت أن تسألنى، "وهل حضرتك سوف تتركنى أذهب إلى النار لأنى على غير دينك برغم ما نفعله معا الآن؟..

أفيق على سؤال عمر: أين ذهبتَ ياجدى أجبنى؟ أقول له يا عمر يا صديقى أنا أخشى أن يكون وراء هذا البحث دعوة خفية ليتنازل كل صاحب دين عن دينه، وهو يمارس بعض الأسس العامة المائعة فى العلن، بينما يخطط لقتل وإبادة وتطهير عرقى لكل من يخالف دينه، فى داخل نفسه، أو خارجها سواء أسماها جهادا، أو حربا استباقية، هل تعرف يا عمر من يحكم أمريكا الآن؟ إنهم الأصوليون القتلة خدام الشركات والمال؟ قال عمر سرحتَ ثانية يا جدى، لم تجبْنى، قلت: أعتقد أنهم

يـروّجون هذه الـدعـاوى المشتركة لـيتـنـازل كل صاحب ديـن عن ديـنـه، ثم يمارس الأقـوى أسوأ مـا فى ديـنـه تحت اسم آخر، يـقـتـل بـه الـنـاس، ويـسمم الـبـيـئة، يـسخر المـال لمزيـد من المال، قـال عمر كـأنـه يـوقـظنى: لم تجبْنى: قـلت: يـذكـرنى مـا يـفـعـلونـه الآن بمثل هذا الـبـحث، وهـذه الأسئـلـة، بـالـتـحكـيم بين عـلى ومـعاويـة رضى الله عنهما بـواسطة عمرو بـن الـعـاص وأبى مـوسى الأشعرى، قـال مـا هذا يـا جدى؟ مـا عـلاقـة هـذا بـذاك؟ قـلت: حـاضر حـاضر.

الجزء الـثـالـث: هيه..!! وضحكت عليك...!!

قـال لى حفـيـدى/ صديـقـى عمر (أو كـأنـه قـال): لم تـقـل لى يـاجدى مـا دخل هـذا الـتحكيم الـذى تحدثـت عنه بمـا أسألك فـيـه حول تـدريـس الـديـن؟ قـلـت لـه: أعترف لـك ابـتـداء أن علاقـتى بـالـتـاريـخ ضعيـفـة جدًا، أنـا لا أكـاد أصدق الحاضر إلا بـالـعـافـيـة، فـمـا بـالـك بـالمـاضى، رأيى الـشخصى أن الـتـاريـخ عمومـا هو، على أحسن الـفـروض: "وجهة نـظر"، قـال عمر يـا خبر يـا جدى! فـمـا هـذا الـذى نـدرسه فى حصص الـتـاريـخ؟ قـلـت: لا تـشغل بـالـك، أنـت تـدرسهـا لـكـى تُـسَمِّعُهـا لـكـى تـنـجح، أمـا مـا حدث فـعلاً، فـلابـد أنـه أمـر لا يـعرفـه أحد بـالـصورة الـتى تـدرسونها، ولا حتى الـتى تحتويـهـا كـتب الـتـاريـخ، قـال عمر: لـيس هـكـذا يـا جدى، واحدة واحدة!! خلـنـا فى حكـايـة الـتحكيم بين على ومعاويـة، قـلت: يـا أخى بـالله عليـك، لـو أن عـندكم فى المدرسة مـبـاراة كـرة أو تـقـسيمه/تـدريـب واتـفـق مـدربـا الـفـريـقـين، أمـام كل الـنـاس والحكام والجمهـور أن يـقـومـوا بـتجربـة لمعرفـة كـفـاءة الـدفـاع بـطريـقـة مـبـتـكـرة، اتـفـقـوا على لـعب مـبـاراة قـصيرة بـدون حـارس مـرمـى، وكـلـف الـفـريـق الأحمر "كـابـتـنـه" لـيـمثـلـه، كـمـا كـلـف الـفـريـق الأخضر كـابـتـنـه بـنـفـس الـشئ واتـفـق الجميع علانـيـة، فـراح كـابـتن الـفـريـق الأحمر ونـفّـذ مـا اتـفـق عـلـيـه، وأخلـى المـرمـى إلا من الـثـلاث خشبـات، فـأسرع كـابـتن الـفـريـق الأخضر ورجع فى كـلامـه وأبـقـى حـارس المرمـى، وكـأنـه يـقـول "هيـه وضحكت عـلـيـكم" هل تـعتـقـد أن الحكم أو المـدربـان أو الجمهـور سيـتـقـبـلـون ذلـك؟ وهل ستـقـام المبـاراة المـعنـيـة أصلا؟ قـال عمر فـوراً: **طبعا لا**، هل هو لـعب عيـال، **طبعا لا**، قـلت هذا مـا يـقـولـون أنـه حدث فى الـتـحكـيم الـذى جرى بين على ومعـاويـة، هـذا مـا يـقـولـون أنـه حدث، أبـو مـوسى الأشعرى خلـع الأمـام على، فـانـبرى عمـرو بـن الـعـاص وثـبـت مـعـاويـة، فـهـل تـصدق هـذا؟ قـال: طبـعـا لا؟ قـلـت: أنـا مـثـلـك، لا أصدقـه، قـال: والـذين كـتـبـوا الـتـاريـخ؟ قـلـت: هم مسئـولـون أمـام الله والـنـاس عمـا كـتـبـوه، قـال: ولـكن مـا عـلاقـة هـذا بـالـذى نحن فـيـه الآن بـشأن الـبـحث الـذى سأقـدمـه لـلأستـاذة، قـلت لـه: الـعـلاقـة واضحة، إن كل هذه الـتـمحكـات لـتـهـمـيش الأديـان هى عبث ضد الـطبـيـعـة، دعك من حكـايـة الـديـن والـسيـاسة والحكم وهذا الـكـلام الـفـارغ، هذا لـعب أخطر دعـنـا نـرى الأمـور أعمق وأهم، هم يـقـولـون اخلـعـوا ديـنـكـم بـعـيـداً عن كل شئ، عن الـتـدريـس، وعن الـرجـوع إلـيـه، وعن الـتـمسك بـه عـلانـيـة، وعن معرفـة أصولـه، وعن الـتـطـور من خلالـه، وحتى عن الاجتـهـاد فـيـه إلا فى حدود مـا يـرسمونـه لـنـا، سـواء هم أو سلطـاتـنـا الـديـنـيـة، وهم يـوهمونـا أنهم يـفـعـلـون ذلـك، حتى نـسـتـطيـع بـذلـك أن نـتـعـايـش معـاً، ثم مـعـهم، كل واحد يمكـنـه أن يمـارس ديـنـه الخصوصى سرا، وعلـيـه

أن يحصل على المعلومات اللازمة بشأنه فى الظلام فى حجرة مغلقة، أما ما نتداوله ونعلنه فهو القبلات وادعاء السماح والاستعباط، هم يسوقون لنا أن يكون الدين بمثابة الهواية الشخصية، تمارس شعائره حسب وقت الفراغ والمزاج الشخصي، أو كاحتفالية اجتماعية، وبعضنا يصدقهم، وإذا بنا نفاجأ أنهم هم أنفسهم يعملون عكس ذلك تماما، ويقسمون العالم إلى محور الشر ومحور الخير، ويحتكرون خير الدنيا، وجنات الآخرة، سرا وعلانية، وهم فى نفس الوقت يتسوقون أصوات الانتخابات من دور العبادة، قل لى يا عمر: من الذى يحكم أمريكا اليوم قال: عمنا دبليو بوش قلت: يا عمر هذا ممثل خائب، لا يصلح كومبارسا، الذى يحكم أمريكا هو اليمين الأصولى المتعصب دينيا ومن ورائه تحالفات المال والغطرسة، إنهم يثبتون بشكل راسخ كل ما يدعوننا لخلعه، قال: تعنى أن دبليو بوش هو عمرو بن العاص الحديث، قلت : يا ليت

انتبه عمر إلى بحثه ونظر فى الورق وسأل متعجلا: جدى: آخر سؤال: هل يمكن أن يحل تدريس الفلسفة محل تدريس الدين؟ وبالتالى ندرسها معاً وفى فصل واحد؟ قلت له: فلسفة ماذا يا عمر؟ هل أوحوا إليك بهذا أيضا. الفلسفة الحقة تعمّق جذور معرفة الله، لكن الدين شئ تالٍ، قال: أعمل ماذا يا جدى؟ أخشى أن أقول لهم أيا مما قلنا، لن يفهموا شيئا، قلت: ايش عرفك، لاتسارع بالحكم قال: يعنى أعمل ماذا؟ قلت: ذاكر، وسّمع، وجاوب، وانجح، وانَس، ثم تعالى نكمل حديثنا، على أن نتحمل مسئوليتنا ومسئوليتهم طول الوقت.

قال: وهم هل سيتحملون مسئوليتنا.

قلت: كل واحد سيتحمل مسئولية كل الناس

قال: يعنى ماذا، لاتلخبطنى

.....

والتفتٌ فوجدت أننى فى هذه الفقرة الأخيرة، كما فى معظم الجزء الثالث، كنت أكلم نفسى.